تقديـــــم

بقلم الدكتور / محمد شعلان

أستاذ الطب النفسي بجامعة الأزهر

حينما دخل الطب النفسي ضمن مناهج التدريس في كلية طب جامعة الأزهر منذ حوالي خمسة عشر عاما تساءل بعض العلماء النفسيين الأجانب عن إمكانية التعايش بيـــن العلوم الإنسانية ـ وعلى رأسها علم النفس ـ و العلوم الدينية في جامعة هي في الأصل جامعة دينية وكانوا في تساؤلهم هذا يسترجعون ذكرياتهم الأليمة حول الصراع بين العلم و المؤسسة الدينية منذ العصور الوسطى وحتى الآن رغم ما يبدو من حسم للمعركة لصالح المؤسسات العلمانية .

وكان السؤال بالنسبة لطالب علم مسلم يعتز بالأزهر و تراثه غريباً و غير متوقع ، ولذا كانت الإجابة بالنفي ، فالحضارة الإسلامية لم يكن فيها ذلك الفصل المصطنع بين الدين و الدنيا ، إذ أن الدين دنيا وآخرة معاً ، ولم يكن فيه رجال دين و رجال علم أو دنيا فعالم الدين التقي يعمل و يكدح و يحيا وسط الناس و مثلهم ، وهو عالم دين ، و ليس كاهناً أو رجل دين و قد يكون متخصصاً أو هاوياً ، بل غالباً ما يكون صاحب مهنة ، أو تخصص ((دنيوي)) بل يدوي وبسيط أيضاً ، فالعلم في الإسلام لم يكن قاصراً على المعرفة العقلية المنطقية المنفصلة عن الوجدان لم يكن هناك فجوة مصطنعة بين المعرفة و الوجود ، أو بين الفكر و الفعل .

كان سؤال صاحبنا الأوروبي هذا يحمل وراءه خليطا من الإشفاق و التعالي في توقعه أن يتعرض العلماء في الأزهر لما تعرض له علماء الغرب من محاكم تفتيش تناقش المنطق بمناطحتة بالحدس ، والشك بمناطحته بالإيمان ، و العلم بمناطحته بالدين ، كان يتوقع أن تثار قضايا في الأزهر مثل : هل نظريات كوبر نيكوس ، أو داروين أو فرويد ــ وهو ما يهمنا في هذا المضمار ــ كفر وتشكيك في الدين ؟

و لعله كان له عذر في تشككه هذا نظراً لما عانى منه العلماء في ظل سيطرة الجهل المستتر وراء السلطة الكهنوتية الدينية في العصور الوسطى ، وربما كان عذره أكبر لما بدا له من بعض مظاهر مشابهة يعلو صوتها أو سلطتها بأكبر من مصداقيتها أو تأثيرها ، فالحق أقوى بكلمته الهادئة من الباطل ذي الحنجرة الصاخبة و النفوذ ، وهو بما يقوم به من نصرة الحق أبقى من السلطان الذي ينتصر بقوة مادية زائلة و زائفة . و الباطل و إن كان ضئيل الحجم يبرز وسط ضوء الحق المنير .

فهل رأى زائرنا الأوروبي مثل هذه البقع السوداء في بياض الأزهر الناصع وتاريخه الشريف ؟ و لعله سمع عن محاولات لم يكتب لها إلا الإجهاض من سلطان يحاسب عالماً حول آرائه العلمية لمجرد أنها لا تتماشى مع ضحالة علمه الذي جناه من كتابات سطحية ، أو سمعها من معتقدات شائعة ، أو أن هذا السلطان يردد بعض أقوال ، أو يحلم بأساليب محاكم التفتيش في مطاردة طالب علم ، أو معلم كتلك التي كانت تقال عن كوبر نيكوس ، و داروين و فرويد .

معذور هذا الزائر إن راح يشكك في رفعة الأزهر و الإسلام ولكنه مخطئ أيضاً فالأصوات العالية ، و الحناجر الخالية ، و العقول الخاوية موجودة في كل مكان بما فيه ذلك العالم الأوروبي المتحضر الذي ينتمي إليه زائرنا ، ولكن لا يحكم بهذه الحالات الشاذة على الغالبية العظمى .

إن غالبية علماء الدين ((أي كافة العلماء بالأزهر الذي لا يفرق بين دين و دنيا ، بل يجمع في الدين بين الدنيا و الآخرة)) علماء بمعنى الكلمة ، وإن لم تسعفهم الأساليب الإليكترونية في جمع الأسماء اللامعة الأجنبية و الاستشهاد بها، فعلمهم و إن كان ينقصه بعض المصطلحات اللاتينية فليس هذا لفقر في اللغة العربية بقدر ما هو فجوة زمنية يحتاجها العلماء حتى يعربوا العلم الحديث و يؤصلوه في القديم ليعيدوا اكتشاف ثراء لغتهم الذي يسمح له باستيعاب المصطلحات العلمية و ربطها بالمفاهيم الإسلامية .

و في مجال علم النفس بخاصة كان للإسلام سبق و إن لم يستخدم مصطلح علم النفس ، أو أساليبه الحديثة ، بل إن الأصل في الطب الإسلامي بل و العلم الإسلامي أنه علم نفس سواها ربها فألهمها فجورها و تقواها ، نفس فيها ما يأمر بالسوء ، وما يلوم وما يطمئن ، نفس ملهمة في مسيرتها لأن تكون راضية مرضية ، و في الأصل كما في الخاتمة هي نفس واحدة منها الذكر والأنثى دون أن يتميز جنس على جنس ، أو عربي على أعجمي ، أو متجبر على مسكين . النفس الواحدة هي من وعاء التوحيد الذي يشكل المحور الأساسي في الفلسفة الإسلامية .

وفي هذه المحاولة من عالم فاضل من علماء الأزهر الناشئين ، نرى الدكتور **محمد طه عصر** عالم النفس و اللغة و الأدب ، و عاشق العربية و أدبها و جمالها يقدم لنا محاولة لاستيعاب علم الغرب ومصطلحاته في التحليل النفسي ليتفهم الشاعر بمثل ما يتفهم شعره ، فالشعر جماله في لفظه و معناه مثلما هو في شخص ناظمه و متذوقه .

الشعر شاعر ومستمع ، وكلاهما منبعه بيئة اجتماعية وحضاريّة إسلاميّة في جذورها متفاعلة مع الغرب في فروعها. في الجذور لم يكن الفصل بين الجسد والرّوح ، ولكنّ الفروع أدخلت علينا قيما جعلت من **ناجي** ــ شاعرنا العظيم موضع التّحليل ـ يتأثّر في نشأته بها فهو يفصل بين الرّغبة الجسديّة الغريزيّة وبين الحب المتسامي ويظهر صراعه من أجل التّوحيد ((أو ما يقابل التّفرّد Individuation عند يونج)) بأن يجمع على الضدّين على كل مستوى ، ويحل صراع الأضداد بين الرّوح والجسد والخير والشّر ، والحب الشّبقي والحب الإلهي فتختلط الألفاظ ويبدو وكأنّه يجعل من المرأة كعبة .

إلا أن التراث ملئ بتلك التشبيهات التي تجعل عاشق الله يتحدث بألفاظ قد لا تبدو روحية في ظاهرها إلا أن الشاعر يعلم أنه بهذا إنما ينقل نفسه وقارئه معه من الأدنى إلى الأسمى ، ويأخذ من الألفاظ ما يبدو دنيئاً ليرتقي في المعنى إلى ما هو في الحقيقى سام .

يأخذنا الدكتور محمد طه عصر في رحلتين مندمجتين مرة أخرى في السعي نحو التوحيد فهو يسعى مع موضع دراسته ، و هو أيضاً موضوع حبه و تقديره إلى الصعود معه من خلال النزول ، بأن يفهم دوافع الشاعر الغريزية وأصولها

النفسية التي يمكن وصفها بالمرضية ليعلـــم ويعلم أن ما يكون الدافع إليه في الأصل عجزاً قد يسمو به صاحبه و يسمو بصاحبه إلى مراقي القوة . إنه يعيش عذاب خضوع العاشق لعشيقته ، واستمتاعه المازوخي بالعذاب على يديها لا ليقف ويتوقف ويتعثر ولكن لينمو و يحول النحاس إلى ذهب ، ويرتفع بالألم إلى البهجة .

وفوق هذا فهو يتدرج أيضاً في مراجعه العلمية الغربية من الفرويدية المحدودة إلى ما أثارته وولدته من توسع و تعمق ، فانتقل إلى الإستعانة بيونج الذي كان أول من خرج على تلك المفاهيم الفرويدية المحدودة ليعطي للنزعة الدينية في الإنسان مكانة تساوي بل تفوق النزعة الغريزية الجنسية .

في هذا الكتاب نرى تطور دراسة عن شاعر فنرى تطور مجتمع وتطور دارس ، فالكل يسير في رحلة لها جذور عبر جذوع ، و إلى فروع و أزهار ، وبذور وميلاد جديد . والجديد لابد له وأن يكون جريئاً ، والجرئ لابد له من مواجهة مع الخائف العتيق .

ونحمد الله مرة أخرى أن جامعة الأزهر يغلب عليها القوة و الثقة التي تجعل من أي بقعة سوداء مجرد ذبابة نتعلم بها الصبر والقدرة على التحمل وسعة الأفق والتسامح . سامح الله من فعل وهداه ، وعضد من سار على هداه ووفق خطاه .

د . محمد شعلان

أستاذ الطب النفسي بكلية طب جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهـــــيد

صلة الشاعرية بالصحة أو المرض النفسي موضوع يثير فضول الأدبيين وتطفلهم المعرفي بقدر ما يبعث التثريب والحرج ، فالشاعر في الموروث الأدبي ذاكرة الأمة وضمير المجتمع والنفس التي تبدع الجمال لابد أن تكون آية في الصحة وأن يذرها الإبداع قاعا صفصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمتا إذ أن ((الذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلاً)) كما يقولون[1] ، وزاد من تحفظهم أن المرض النفسي في توهم الكثيرين اضطراب كلي يجرد صاحبه من الانضباط والتبصر . ويقتضي تدخلا لعلاجه والحجر على تصرفاته وبهذا خلطوا بين النفسي والعقلي وتصوروا أن تحليل الشاعر يقتضي استنطاقه بشخصه وفحص عقله وأعصابه ، وهو شئ إذا أمكن مع الأحياء إن هم وافقوا فكيف بمن كانوا ترابا وعظاما ، وذهبت أعصابهم وعقولهم فيما ذهب من أجسادهم ؟!

والواقع أن الموضوع حرج مما لا يستدعي الحرج ، فالشاعر يستمد أخيولاته من باطن يعتوره ما يعتور أي إنسان من العلل تنتاب نفسه كما تنتاب جسده ، وليس المرض النفسي حتى في صورته ((الأكلينيكية)) إلا اضطراب وظيفي قوامه الخوف والقلق والاكتئاب والوسوسة وشئ من

---

(١) أيليا أبو ماضي ، ديوان الخمائل قصيدة (كن جميلاً) .

الأفعال القسرية ، ونحو ذلك من الاضطرابات الانفعالية التي لا علاقة لها بعقله ، ولا تستدعي بالضرورة تدخلا لعلاجه والحجر على تصرفاته ، كما لا تحول دون تحمله مسئوليته أو قيامه بواجباته ، وتبصره بعلله وأدوائه وتلك هي المفارقة الدقيقة بين المرضين ((psychosis ، neuroses)) العقلي والنفسي ، لهذا استبدل بالأخير مصطلح أكثر دقة وتحديدا ، وبعدا عن الحساسية والتحفظ وهو العصاب ، دون أن يعني ذلك إشارة إلى اضطراب عصبي كما قد تغري الدلالة اللغوية لمادة ((عصب)) التي اشتقت منها الكلمة إذ لا توجد بالضرورة علاقة مضطردة بين الاضطرابين العصابي والعصبي ، فثمت شعراء يكابدون التهيج العصبي دون أن يكونوا عصابيين ومن العصابيين من تبدو عليهم أعراض عدة ليس من بينها العصبية .

إننا جميعا نقر بمرض ـ أي شاعر ـ نصفه بالخوف ، القلق ، الاكتئاب ، الوسوسة ، التوهم ، السوداوية ، الهلوسة ، الانفصام ، الازدواجية ، الهوس، الطفولة ، العدوانية ، التوجس ، أو نحو ذلك من الصفات النفسية التي نطلقها في السياق الأدبي ، دون أن نحتاط في إطلاقها ، أو نعمل حسابا لانتماءاتها المعرفية باعتبارها إفرازات لحالات تختلف أسبابها وأعراضها ، ودرجاتها تبعا لفعاليات البيئة وأساليب الثقافة والتنشئة فالقول إذن أن شاعرا ما عصابي يعني أن ثمة اختلالا في بنيته النفسية لضغوط اجتماعية تعرض لها في طفولته ثم عززتها في الكبر مواقف إحباطية أفقدته التوافق وسلبته التكيف والاتزان ، دون أن يكون لذلك بالضرورة علاقة بأعصابه ، ويكون خوفه من بيئته داخلية أو خارجية هو حجر الزاوية في قلق لديه بدأ بسيطا ثم تضخم فكاد يفضي إلى اكتئابه وهنا تصبح شاعريته قناعا لذاته ، وتفريغا discharge لباطنه ، وآلية دفاعية mechanism تحصنه ضد اكتئابه فتسقطه قبل أن يسقط هو ضحيته .

وما دمنا نقرر أن ((الأسلوب هو الشخصية)) وأن ((المعنى في باطن الشاعر)) فإنه بإضافة هذه إلى تلك يصح لنا أن نستنتج أن الشعر قطعة من نفس الشاعر ، وشريحة موثقة من تهويماته ، وأخليته يكشف باطنه ، ويقرر حالته وينوب عنه حيا أو ميتا دون حاجة إلى وجوده ، بشخصه لاستنطاقه ومخاطبته . وإذا كان الطبيب النفسي كثيرا ما يستعين في كتابة تقريره بشخص لصيق بمريضه وهو ليس جزءا منه ، فكيف بشعر هذا المريض وهو قطعة منه ؟! كذلك دارس الأدب إذا جمع بين الحسنيين التخصص الأدبي والتخصص النفسي ، وكان قبل ذلك شاعرا خبر الشعر وعاناه ودفع إلى مضايقه فإنه يستطيع أن يميز السادي والمازوكي والهوسي والفصامي والنرجسي والأوديبي وغير ذلك من الأنماط العصابية أو الذهانية التي تنطوي عليها لغة الشاعر وتقنياته الأسلوبية وأن يقرر ما إذا كانت مؤشراً على المرض أم دليلا على الصحة ، وهل توجد علاقة سببية بين الشاعرية وكل من المرض والصحة النفسية ، وأن يعرف القدرات الفنية للعصابيين وعلاقاتها بالعوامل الوراثية ، والنفسجسمية والسبب الذي يجعل هذه الفئات الخاصة تبدع الشعر ثم السبب النوعي لتوجهها الأدبي .

في ضوء هذا التصور سنتخذ من ديوان الطبيب إبراهيم ناجي ((١٨٩٨-١٩٥٣)) مادة للبحث لأنه في رأينا حالة خاصة تنطوي على شخصية عصابية وطبع عصبي ، ونفسية مازوكية لم تستطع أن تسبرها الدراسات الأدبية التي أعقبت نشر ديوانه هذا ١٩٦١ حيث نحلت عليه خمس عشرة قصيدة من ديوان آخر لشاعر معاصر[٢] وما أن نشر الديوان

---

(٢) هو الدكتور كمال نشأت أستاذ الأدب العربي بجامعة الإسكندرية .

حتى وقعت الواقعة وقامت قيامة الأوساط الأدبية ولم تقعد حتى سارع المسئولون بسحب الديوان بعد الاعتذار وتصويب الخطأ لأن الأمر كان قد رفع إلى القضاء وصدر حكم بإدانة المسئولين جاء في حيثياته ، ((أن أعضاء اللجنة لم يؤدوا رسالتهم التي كلفتهم بها وزارة الثقافة وهي تحقيق شعر شاعر معاصر لهم ، عاش معهم ، وشاركهم مكانتهم في بعض الوقت ، وأن خطأ المدعي عليهم كان من اليسير تداركه لو أنهم توخوا الدقة في البحث ، واتبعوا الأساليب العلمية في التحقيق))[٣] .

تلك هي القضية وذلك هو الحكم ، أما اللجنة[٤] فما أدراك ما هيه ؟! استاذ متخصص في الدراسات الأدبية وشاعران ومعهم شقيق الشاعر !!! لجنة تجمع بين الحسنيين : صلة النسب وصلة الأدب ، ولكن هيهات هيهات فالشاعر كما قلنا حالة عصابية خاصة لا تغني هذه القرابة في تشخيصها فتيلا ولا قطميرا . وبالطبع لم يجد المدعى عليهم حجة تبرر خطأهم غير ((الرومانسية)) التي تجمع بين ناجي ومشاكليه كأنهم روح واحدة يصدر عنها أنفاس متلاحقة ، أو دم واحد يجري في عروق متعددة دون مراعاة لفروق الطبع والمزاج والشخصية .

لهذا سنتناول الشاعر بطريقة مختلفة مستخدمين القياس الإحصائي لاسلوبياته وتقنياته ووحداته البنيوية ، ضاربين تحت جذورها لاستدراج كل ما هو لا شعوري ، وتحويله إلى منطقة الشعور معتمدين التحليل النفسي psychonalysis مرجعا ونظرية لسبر ذلك السديم الوجداني الذي يسمى

---

(٣) تفاصيل القضية في جريدة وطني ٢٠ / ٨ / ١٩٦١ م عدد ١٤٠ .

(٤) أعضاء اللجنة هم : د . أحمد هيكل ، الشاعران صالح جودت وأحمد رامي ، ومعهم الأستاذ محمد ناجي شقيق الشاعر .

((باطن الشاعر)) والذي يشبه سطح البحر يوهم لسكونه وصفاء مائه أن في أعماقه درا لا كدرا ولا طينا. وليس معنى هذا أننا نرمي بالتحليل النفسي إلى تلطيخ الشاعر وتشويهه والجهر بالسوء من باطنه ، وإنما نهدف إلى الوقوف على تلك السمات الوجدانية الفارقة التي تميزه ممن نحل عليه شعرهم أو تشاكل فالتبس به ، كل ذلك في محاولة لتدارك ما فات تلك اللجنة الأدبية من ((توخي الدقة في البحث واتباع الأساليب العلمية في التحقيق)) وهي محاولة تواكب طموحنا الدائم إلى تحقيق علمية النقد الأدبي وضبط معاييره ليصبح علما له أدوات العلم ووسائله الدقيقة ، ولنعيد الثقة في معطياته المعرفية التي أتى عليها حين من الدهر تدور في فلك المعاد المكرور بحثا عن المعنى في ظاهر اللغة لا في باطن الشاعر .

ولا تخفى صعوبة محاولتنا هذه ووعورة تضاريسها وحاجتها إلى المعارف النفسية على اختلاف مصادرها الطبية والفسيلوجية والانثروبولوجية ، فضلا عن روافد التاريخ والميثولوجيا وعلوم اللغة والجمال ، كما لا تخفى أن نتائجها تنطوي على ادعاء الوصول إلى باطن الشاعر بطريقة جازمة بما قد يتعارض مع سديم هذا الباطن وتعقد مخزونه من ناحية ، وبساطة بنيته اللغوية ووضوحها الظاهري من ناحية أخرى ، من حيث أن هذه البنية باعتبارها أداة لهذا الباطن ، يمكن أن تستدرجها التداعيات الاسلوبية ، فتنطوي على تجربة خيالية لا صلة لها بهذا الباطن وأن ثقافة الشاعر قد تسير به في خط مواز لباطنه ، فتصير هي الأخرى هما ضاغطا يراوده ويملي عليه مذهبه ووجهته وهويته الأدبية فما يشاء أو يرضى إلا ما تشاءه هذه الهوية وترضاه ، ولكن هذا لا يعني بالضرورة طمس الفروق الفردية ، أو مصادرة الجينات الوراثية حتى بين أبناء المدرسة أو الجماعة أو الأسرة الأدبية الواحدة ، لأنه بتمركزه الذاتي وما يتملكه من تقنيات التطعيم

والتقليم يعبر عن ذاتـه مهمـا كـان انتمـاؤه المذهبـي ومهمـا حـاول التمويـه أو التعتيـم ، ذلـك أن مؤتفكاتـه الباطنيـة تظـل همـا ضاغطـا يبحـث عـن أخيولـة تعتصرها وتلقف ما تنطوي عليه من أمنيات معوقة ، أو رغائب مكفوفة ، بل إن توجهه نحو مذهب ما وارتضاءه دون غيره إنما هو جزء من عقله الباطن حتى إذا ما ورد هذا المذهب فإنه يتجرع بعضه فيسيغه ويتجـرع الآخـر ولا يكاد يسيغه ولهذا قيل ((اختيار المرء قطعة من عقله)) .

والبحث الذي بين يديـك يتنـاول ((حالـة خاصـة)) تقـع فـي سـتة محـاور تتضمن ثلاثتها الأولى أعراض هذه ((الحالة)) متبوعة بثلاثة أخرى أحدهـا عـن الشـاعرية والصحـة النفسـية والثـاني عـن الشـاعرية والذهـان ثـــم موازنات تعكس الفروق الفردية بين الشاعر وأترابه ممن نحـل عليـه شـعرهم أو تشاكل فأقحم في ديوانه ، وسوف نعتمد على النص ذاتـه ومـن خـلال هـذا الديوان المشكل لنتتبع بطريقة عرضية ، جذور هـذه الحالـة اختبـاراً لصدقهـا وثباتها واطرادها بآلياتها وحرفياتها على لغته وأسـلوبه وتقنياتـه الفنيـة . دون أن نقتصر على تصنيفه تبعاً لعصره أو إقليمه أو انتمائه المذهبي أو نحو ذلـك من التصنيفات الأدبية التـي لا تقيم أودا ولا تشـفي غلـة ولا تنهـض وحدهـا لتميز الفروق الفردية بين شاعر وآخر ، واضعين في الاعتبار أن نقدنا القديم كان محصلة لحقب ثقافية أتيح فيها للاحق ما لـم يتـح لأسـلافه ، وأن القدمـاء أنفسهم فطنوا إلى صلة الإبداع بقلـق الشـاعر وخوفـه وتوهمـه واضطرابـه ، وتفاوت أحواله وفساد أو صحة طبعـه وحاشـيته أو مـاعون بيتـه ، ولـم يكـن بينهم وبين تقرير مرضه إلا ضربة معول حيـن أشـاروا إلـى اختـلاف مجالـه الادراكي والوجداني من حيث أنه يشعر بما لا يشعر به غيره ويفطن إلى مـا لا يفطن إليه سواه حتى ليقولون به جنة وليس بشرا من طين .

د . محمد طه عصر

المنامة فـــي يونيه ١٩٩٧ م